أليس فى بلاد الأعاجيب

Alice in the Wonderland

٨ – الخـــاتمة

اسْتَمَرَّتْ أَلِيس تُطَوِّحُ ذِرَاعَيْهَـــا ، تُغَالِبُ أَوْرَاقَ اللَّعِبِ ، وَأَوْرَاقُ اللَّعِبِ تُغَالِبُهَا ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْخَوْفُ وَالْغَضَبُ ، فَاسْتَجْمَعَتْ قُوَاهَا ، وَصَرَخَتْ صَرْخَةً أَعْلَى مِنْ سَابِقَتِهَا ، وَحِينَئِذٍ شَعَرَتْ بِيَدٍ تَرْبِتُ عَلَى كَتِفِهَا بِحَنَانٍ ، فَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا ، وَإِذَا بِهَا تَجِدُ نَفْسَهَا رَاقِدَةً فَوْقَ الْحَشَائِشِ عَلَى حَافَةِ النَّهَرِ ، وَأُخْتُهَا الْكُبْرَى بِجِوَارِهَا ، تُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهَا ، وَتَقُولُ : « اسْتَيْقِظِي يَا أَلِيس ، لَقَدْ نِمْتِ طَوِيلاً ، وَأَظُنُّكِ كُنْتِ تَحْلُمِينَ حُلْمًا مُزْعِجًا ، إِذْ سَمِعْتُكِ تَصْرُخِينَ . »

وَإِذَنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ مَا رَأَتْهُ أَلِيس سِوَى حُلْمٍ مُمْتِعٍ لَذِيذٍ ، رَغْمَ مَا فِيـــهِ مِنْ مَخَاوِفَ وَمُفَاجَآتٍ ، فَجَلَسَتْ تَسْرُدُ لِأُخْتِهَا قِصَّةَ حُلْمِهَا ، وَكَأَنَّهَا لَا زَالَتْ تَرَى الْأَرْنَبَ يَجْرِي بَيْنَ الْحَشَائِشِ وَالْفَأْرَ يَسْبَحُ فِي الْبِرْكَةِ ، وَالْأَمِيرَةَ وَخِنْزِيرَهَا الصَّغِيرَ ، وَسَامَّ أَبْرَصَ (الْبُرْصَ) الْمِسْكِينَ ، (وَالتِّرْسَةَ) الْعَجِيبَةَ وَصَدِيقَهَا ، وَالْمَلِكَةَ وَرَعِيَّتَهَا ، فَأَقْفَلَتْ عَيْنَيْهَا ، وَوَدَّتْ لَوِ اسْتَغْرَقَتْ فِي النَّوْمِ ، وَعَادَتْ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَلَكِنَّ أُخْتَهَا نَبَّهَتْهَا إِلَى ضَرُورَةِ الْعَوْدَةِ إِلَى الْمَنْزِلِ لِتَنَاوُلِ الشَّايِ ، فَقَامَتَا وَعَادَتَا إِلَى الْبَيْتِ .

* * *

وَالْآنَ ، وَقَدِ انْتَهَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ ، نُورِدُ الْخِطَابَ الَّذِي ذَيَّلَهَا بِهِ الْمُؤَلِّفُ لِويس كَارُول (Lewis Carroll) عِنْدَ أَوَّلِ نَشْرِهَا فِي عِيدِ الْفِصْحِ (شَمِّ النَّسِيمِ) فِي رَبِيعِ عَامِ ١٨٧٦ :–

« طِفْلِي الْعَزِيزَ ،

أَرْجُوكَ أَنْ تَعْتَبِرَ هَذَا خِطَابًا حَقِيقِيًّا مِنْ صَدِيقٍ حَقِيقِيٍّ ، تَعْرِفُهُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهُ ، وَيَتَمَنَّى لَكَ حَيَاةً سَعِيدَةً هَانِئَةً .

وَأَرْجُو ، حِينَ تُشْرِقُ الشَّمْسُ فِي الصَّبَاحِ ، وَأَنْتَ رَاقِدٌ فِي سَرِيرِكَ ، بَيْنَ الْيَقَظَةِ وَالنَّوْمِ ، تَسْمَعُ تَغْرِيدَ الطُّيُورِ الْجَمِيلَ ، وَتُحِسُّ نَسِيمَ الرَّبِيعِ الْعَلِيلَ ، أَنْ تَذْكُرَ الطَّبِيعَةَ الَّتِي حَوْلَكَ ، وَمَا فِيهَا مِنْ أَشْجَارٍ ، قَدْ أَخَذَتْ تُورِقُ وَتُزْهِرُ ، بَعْدَ طُولِ جَفَافٍ ، وَتَتَمَايَلُ فِي مَهَبِّ النَّسِيمِ ، فَرَحًا

وَجَدَلاً ؛ وَحُقُولٍ وَاسِعَةٍ ، كَانَتْ قَبْلَ الرَّبِيعِ أَرْضاً عَارِيَةً سَوْدَاءَ ، فَكَسَتْهَا الْخُضْرَةُ وَالْأَزْهَارُ النَّاضِرَةُ ، يَنْسَابُ الْمَاءُ فِي جَدَاوِلِهَا وَغُدْرَانِهَا ، تِيهاً وَعُجْباً ؟ وَالشَّمْسُ تَسْطَعُ عَلَى كُلِّ هٰذَا بِأَشِعَّتِهَا الذَّهَبِيَّةِ الْوَهَّاجَةِ ، فَتُكْسِبُهَا حَيَاةً وَجَمَالاً .

أَلَا تُذَكِّرُكَ الشَّمْسُ ، حِينَ تُشْرِقُ عَلَيْكَ فِي الصَّبَاحِ بِأُمٍّ حَنُونٍ ، تُوقِظُكَ مِنْ نَوْمِكَ فِي رِفْقٍ وَبِشْرٍ ، كَمَا أَيْقَظَتِ الطَّبِيعَةَ بَعْدَ نَوْمِ الشِّتَاءِ الْعَمِيقِ ؟ فَاسْتَيْقِظْ إِذَنْ ، وَتَمَتَّعْ بِمَا يَحِيطُ بِكَ مِنْ جَمَالٍ ، وَابْدَأْ يَوْمَكَ بِالصَّلَاةِ لِرَبِّكَ ، الَّذِي خَلَقَ لَكَ كُلَّ هٰذَا .

قَدْ يُدْهِشُكَ أَنْ أَكْتُبَ لَكَ بِهٰذَا الْأُسْلُوبِ الْجِدِّيِّ ، بَعْدَ أَنْ كَتَبْتُ لَكَ قِصَّةً ، كُلُّهَا غَرَابَةٌ وَخُرَافَةٌ ، وَلٰكِنَّ اللهَ الَّذِي وَهَبَ لَنَا الْحَيَاةَ ، وَهَيَّأَ لَنَا السَّعَادَةَ وَالْهَنَاءَ ، أَرْحَمُ مِنْ أَنْ يُقَيِّدَنَا بِحَقَائِقِ الدُّنْيَا الْجَافَّةِ عَلَى الدَّوَامِ ، فَخَلَقَ لَنَا عُقُولاً نُفَكِّرُ بِهَا فِي الْأُمُورِ الْجِدِّيَّةِ ، كَمَا خَلَقَ لَنَا خَيَالاً وَاسِعاً ، نَهِيمُ بِهِ فِي عَالَمٍ مَجْهُولٍ ، كُلُّهُ طَرَائِفُ وَغَرَائِبُ ، فَنَنْسَى بَعْضَ الْوَقْتِ دُنْيَانَا ، وَنُرِيحُ عُقُولَنَا ، وَنَتَمَتَّعُ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ ، لَا وُجُودَ لَهُ فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ ، إِنَّنَا نَحْلُمُ وَنَحْنُ نِيَامٌ ، أَحْلَاماً بَعْضُهَا سَرٌّ وَبَعْضُهَا مُخِيفٌ ، وَلٰكِنَّنَا نُثْنِي عَلَى السَّوَاءِ ، وَنَسْرُدُهَا لِإِخْوَانِنَا فِي شَغَفٍ وَلَهْفَةٍ ، وَهٰذِهِ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ ، فَلِمَ لَا نَحْلُمُ فِي الْيَقَظَةِ أَحْلَاماً لَذِيذَةً مِنْ صُنْعِ خَيَالِنَا ؟

هَا قَدْ أَقْبَلَ الرَّبِيعُ ، وَكُلُّهُ حَيَاةٌ وَمَاءٌ ، وَسَيَمْضِي هٰذَا الرَّبِيعُ وَسَيَأْتِي غَيْرُهُ وَغَيْرُهُ ، وَهٰكَذَا سَتَمُرُّ بِكَ سَنَوَاتٌ كَثِيرَةٌ ، حَتَّى تَصِيرَ شَيْخاً كَبِيراً ، قَلِيلَ النَّشَاطِ ، كَثِيرَ الْهُدُوءِ ، فَتَمَتَّعْ بِرَبِيعِ حَيَاتِكَ قَبْلَ أَنْ يَلْحَقَكَ الْكِبَرُ ، وَاقْضِ وَقْتَ فَرَاغِكَ فِي قِرَاءَةِ الْقِصَصِ الْمُمْتِعَةِ ، وَالرِّيَاضَةِ الْمُفِيدَةِ ، وَمُشَاهَدَةِ الطَّبِيعَةِ السَّاحِرَةِ وَاخْتَزِنْ مِنْ كُلِّ هٰذَا ذِكْرَيَاتٍ لَذِيذَةً لِشَيْخُوخَتِكَ.

إِنِّي أَشْعُرُ بِنِهَايَتِي دَانِيَةً ، وَسَيَأْتِي يَوْمٌ أُفَارِقُ فِيهِ هٰذَا الْعَالَمَ ، فَتَطْوِي الْأَرْضُ جَسَدِي ، وَلٰكِنَّ سَلْوَتِي أَنِّي تَمَكَّنْتُ فِي حَيَاتِي مِنْ أَنْ أُقَدِّمَ لِلْأَطْفَالِ ، وَهُمْ أَحَبُّ مَنْ أَحْبَبْتُ ، قِصَصاً تُسَلِّيهِمْ وَتُغَذِّي عُقُولَهُمْ ، وَعَزَائِي أَنِّي سَأَنْتَقِلُ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ ، أَلْقَى فِيهِ مَرَحاً وَهَنَاءً أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا قَدَّمْتُ فِي طُفُولَتِي ، وَأَتَطَهَّرُ فِيهِ مِنْ كُلِّ مَا أَصَابَنِي فِي حَيَاتِي مِنْ حُزْنٍ ، وَمَا ارْتَكَبْتُ مِنْ إِثْمٍ

فَالْوَدَاعَ »

« صَدِيقُكَ الَّذِي يُحِبُّكَ

شم النسيم سنة ١٨٠٦ لويس كارول »

تَلْقَى قِصَّةُ « أَلِيس فِي بِلَادِ الْأَعَاجِيبِ » مُنْذُ ظُهُورِهَا ، إِعْجَابَ الشَّعْبِ الْإِنْجِلِيزِيِّ ، وَلَا زَالَتْ إِلَى الْيَوْمِ مَفْخَرَةَ كُتَّابِهِمْ وَأُدَبَائِهِمْ ، الَّذِينَ يَعُدُّونَهَا أَحْسَنَ ما أُخْرِجَ مِنَ الْقِصَصِ لِلْأَطْفَالِ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ نُسْخَةً مِنْ طَبْعَتِهَا الْأُولَى بِيعَتْ بِالْمَزَادِ الْعَلَنِيِّ فِي لَنْدَنَ مُنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ ، فَوَصَلَ ثَمَنُهَا إِلَى ٩٠٠ جُنَيْهٍ ، كَمَا وَرَدَ فِي بَرْقِيَّةٍ نُشِرَتْ فِي عَدَدِ جَرِيدَةِ الْأَهْرَامِ الْغَرَّاءِ الصَّادِرِ فِي ٩ فِبْرَايِرَ سَنَةَ ١٩٣٦ م .

حيلة الثعلب

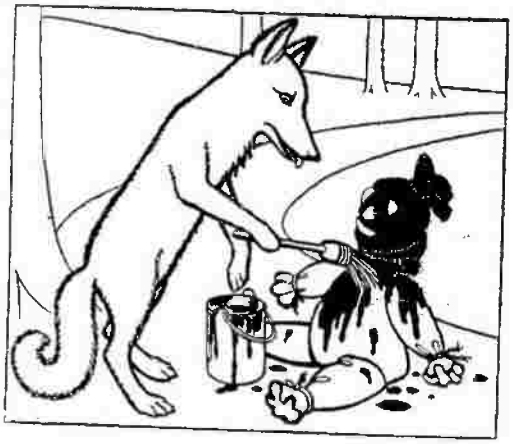

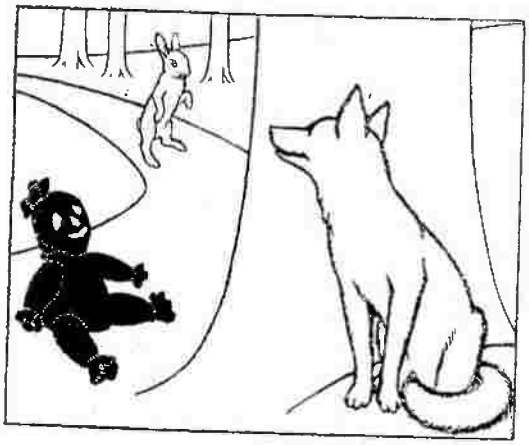

(١) أَرَادَ الثَّعْلَبُ أَنْ يُجَرِّبَ حِيلَةً أُخْرَى لِلْقَبْضِ عَلَى الْأَرْنَبِ ، بَعْدَ أَنْ فَشِلَ فِي حِيلَتِهِ الْأَخِيرَةِ . فَصَنَعَ دُمْيَةً عَلَى هَيْئَةِ طِفْلٍ صَغِيرٍ ، وَطَلَاهَا بِطِلَاءٍ أَسْوَدَ .

(٢) وَاخْتَبَأَ وَرَاءَ شَجَرَةٍ ، فِي انْتِظَارِ مَا يَكُونُ مِنْ شَأْنِ الْأَرْنَبِ مَعَ الدُّمْيَةِ .